الإنقلاب البعثي

كنت حاملا في نهاية شهري السابع يوم وقع الإنقلاب البعثي، وكنا نسكن في بيت أهل زوجي في المزة ، ولم يبت في أمر تقاعده الاّ بعد جهد، وكان أنصار عبد الناصر لا يزالون أقوياء في دوائر الدولة يحاربوننا في لقمة عيشنا، وكنا قد أنفقنا المبلغ الضئيل الذي كان لنا في أحد المصارف باسم سلام ويوسف، ولم نستطع سحبه قبل سفرنا العاجل الى بلغاريا، على نشر الكتاب.. فقد جاء اليه من أسرّ اليه يومها بأن السفارة الروسية قد علمت بأن مؤامرة تدبّر لاغتياله من قبل مكتب السراج، وقام أصدقاؤه بترتيب سفره أولا ثم أتبعه أنا والصغيرين فيما بعد، وكنت حينذاك أيضا متقلة بحملي في شهري الثامن، وسفري مربك له كثيرا في تلك الظروف الحرجة..

أما الآن فلأول مرة أنفصل عن عفيف ولا أستطيع اللحاق به، وكان هذا الفراق معذّب لي بشكل خاص فأنا لاأعرف كيف أتدبّر أمري، وكرامتي لا تسمح لي أن أكون عبئا على أحد، ومعي ثلاثة أطفال والرابع على الطريق، ولقد قطع راتب عفيف التقاعدي عني منذ قامت الثورة، وأنجبت ابنتي الصغرى في أيار من ذلك العام.. وأسميتها رفاء أي الوفاق ولكن في المستشفى الذي ولدت فيه أسموها رفاه وهذا مالا ينطبق أبدا مع وضعي.. وأمضيت صيف ذلك العام في دربل حيث كان أصغر إخوتي يعلّم، واستطعت حين عدت الى دمشق أن أحصل على عمل في الجامعة بساعات إضافية في تدريس اللغة الإنكيزية في كليات الطب والصيدلة والعلوم ومدرسة التمريض، وكنت على اتصال دائم بزوجي عن طريق ضابط يحمل رسائلنا في لفائف صغيرة نكتبها على ورق رقيق..

بقي الفريق متواريا ثلاثة أعوام وزرته في العطلة الصيفية واجتمع شملنا في منزل عائلة أرمنية حيث كان الشيوعيون يخفونه عن الأنظار.. وعند قدومنا تركوا البيت لنا وذهبوا لقضاء الصيف في منتجع خارج بيروت..

كان عفيف ضيق الصدر سجينا في بلده، في مسقط رأسه لبنان، وكان يعيش في بيروت متخفيا لا يستطيع التجوال في الشوارع ولا زيارة الأهل منذ مقتل غسان جديد اذ منع بعدها بقرار رسمي من دخول لبنان.. لم يكن لعفيف دخل في اغتياله، بل كان قد أصدر حكما بالإعدام عليه في محاكمة علنية بسبب تورطه في قتل المالكي، ولكنه لم ينصب نفسه جلادا ليقوم بتنفيذ الحكم باغتياله في لبنان..

كان السراج يتبجح بأنه هو الذي فعل ذلك، وكان عفيف غاضبا منه لأنه يشكك بعدالة المحاكمة التي يرأسها والأحكام التي أصدرتها بحق قتلة المالكي حتى جعلت شكري القوتلي يخشى العودة الى سوريا خوفا من أن يضطره العسكريون الى التوقيع عليها وتنفيذها فيكسب عداء حزب له مكانته في سوريا ولبنان.. فكانت كلمته المعروفة لرسول القوتلي، وهو زوج ابنة عمي الصغرى، جلال عقيل: "ان دوري ينتهي عند قوس المحكمة، وعلى رئيس الدولة أن يقرّها أو يرفضها حسب مايراه في مصلحة البلاد"..

ما كان عفيف يستسيغ النضال السلبي الذي اعتاده الشيوعيون، فلقد عاش حياته في وضح النهار يغشى الحرب في فلسطين، ويقاوم الإستعمار قديمه وحديثه ويناضل الديكتاتوريات ويفضح نوازعها، فكان صدره يضيق وهو قابع في ركنه يترجم كتابا لعالم كبير في الفيزياء عن الفرنسية ويتسلّى بحلّ مسائله.. ويهدّد بتسليم نفسه للسلطات اللبنانية أو السورية.. فكان مجيؤنا عزاء له، وأمضينا نهارنا بتنظيف المنزل الكبير وإبادة الصراصير التي تسرح وتمرح فيه وتعشش مستعمراتها في أثاث مطبخه، وغلينا الشراشف وحمّمنا الأولاد.. كم ضحكنا يومها وتمازحنا وتزحلقنا على رغوة الصابون في الصالة الرحبة، حتى اذا جاء المساء وخلدنا للراحة في الأسرّة التي جمعناها معا وبيننا أطفالنا الأربعة أقص عليهم القصص كي يناموا فيطلبون المزيد في تلك الليلة المميزة وقد

صحوا، أما أنا فقد وهنت قواي ورحت في سبات عميق.. كانت الأسابيع الماضية لسفرنا حافلة بالمعاناة فلقد أصبنا باسهال وبائي واحدا تلو الآخر وكنت أنا آخر من التقط العدوى، بالإضافة الى المتاعب التي صادفتها في دوائر الدولة لأحصل على اذن بالسفر.. استغرقت بالنوم ولم أصح الاّ في صبيحة اليوم التالي. كان الصغار نائمين ولكن الفراش خلو من عفيف، ذهبت أبحث عنه فرأيته جالسا على ديوان يدخن وقربه منفضة ملأى بأعقاب السجائر.. كان غاضبا مني ولم يقبلني قبلة الصباح، وفي ملامحه حزن صامت وخيبة أمل قلت قبل أن يتفوه بكلام جارح يجعل حاجزا ما بيننا بضعة أيام:

–لم لم تصحيني؟ لو ناديت قلبي وأنا في نوم أهل الكهف يصحو ويستجيب لك.. أعرف ماذا يدور بذهنك الآن، ولا أريد أن أضيع هذه الأوقات الثمينة في تبرير ما جرى لي.. والله كان كل يوم يمر علي في غيابك أصحو على ذكرك ومخدتي غارقة بدمعي.. ولم أصدق أذني حين بلغني أنك ترغب أن آتي اليك، ولكن لسوء حظي أنني كنت مريضة أنا والأولاد ولم أشأ أن أخبرك بهذا حتى لا أشغل بالك.. كنت أذهب الى دوائر الدولة وفيها كل وجه مقيت وأنا محمومة ورأسي يدور أتحامل على نفسي كي أحصل عل إذن بالسفر.. وطوال الطريق أحلم بلقيانا.. غلبني النوم، وهذا كل شيء!

تركته وخرجت لأعد طعام الإفطار.. فجاء الى المطبخ وقبلني قبلة الصباح!..

كانت أياما سعيدة تلك التي أمضيتها في بيروت.. خرج من عزلته وأخذنا نتجوّل في بيروت ونسحب معنا أربعة أولاد.. ما كان أحد يعرفنا في تلك العاصمة المزدحمة.. نصادف في طريقنا جنودا أمريكيين، فرادا أو زرافات ممن جاؤوا يوم الإنزال ليملأوا الفراغ الذي حدث عند غياب الإستعمار القديم باستعمارهم الحديث، جنودا لا يملأون العين لصغر سنهم وكأنهم طلاب مدرسة

ثانوية متنعمون.. يحملون بواريدهم ويتمخطرون.. ألا ان الإستعمار لا يهزم أمة الاّ بمعونة الخونة من أبنائها كما كان يردّد عفيف.. بيروت ناصرية ولا تناسبنا، ودمشق بعثية وتلاحقنا.. كنا نخطط للسفر الى الجزائر بعد أن استقلّت، وطلب مني حين أعود الى دمشق أن أتصل بصديق كي يتصل بدوره بالسفارة الجزائرية لتسهل لنا السفر وتجد لعفيف عملا في الجامعة كمدرّس للفيزياء.. ولكن عبد الناصر كان قد سبقنا اليها، وكان الثوارالذين كانوا يأتون الى شقتنا في مصر الجديدة والتي كان قد استأجرها من أحد وزراء عبد الناصر كمال رفعت وهو لا يدري أنه مدير المخابرات، وهي فيلا من طابقين نسكن نحن الطابق الأرضي وهو الطابق العلوي.. كان الثوار الذين أسمع حديثهم وأنا في غرفة نوم سلام ويوسف وهم يجلسون على الديوان في الشرفة يتحدثون عما يعانونه من تصرف عبد الناصر، ومساعدته لهم بالأرز المسوس، وتحريض الممرضات الجزائريات اللواتي يعملن في القاهرة للتجسس عليهم.. وأسمع ما يقترحه عفيف عليهم في المطالبة أن تكون لهم ميزانية ثابتة للقيام بنفقات الثورة والتحرير.. هؤلاء الثوار أنفسهم الذين دفعوا ضريبة الدم يلاحقون من النظام الجديد بعد الإستقلال ويلقون في السجون أو يتشردون في المنافي!..

وبهذه المناسبة أذكر الموقف الذي وقفه عفيف من الثورة الجزائرية يوم كان قائدا للجيش وأبرم صفقة الأسلحة مع الإتحاد السوفياتي في مطلع عام 55 حين طلبوا منه أن يكفلهم على أسلحة بعشرين مليونا، ففتح لهم المستودعات ليأخذوا منها حاجتهم دون مقابل!..

ان الرسائل التي تبادلتها وعفيف منذ الإنقلاب البعثي في سوريا توضح بشكل دقيق هذه المرحلة التي عشناها.. ولقد نقلت الى الكومبيوتر وأنتظر الفرصة المناسبة لأنزلها من موقعي على الإنترنيت..

* * *